هيلعلا وه

اهبنانسلإا قّقحتةّيفيكوةّيدوبعلا ةقيقح

٣٠ ةرضاحملا - يّرصبلا نانوعلا ثيدح حرش

اهاقلأ
يّناهرطلا يّنيسحلا نسحم دّمحم دّيسلا ّجاحلا الله ةيآ
هرس الله سدق

@MadrastAlwahy

أعوذُ باللهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيم
بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيم
وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنا وَحَبيبِنا، أبي القاسِمِ المُصطَفى مُحَمَّد
وَعَلَى آلِهِ الأطْيَبينَ الأطْهَرينَ الهُداةِ المَعصومينَ
السَّيِّما بَقيَّةِ اللهِ في الأرَضينَ، أرواحُنا لِتُرابِ مَقدَمِهِ الفِداء
وَالعَنَةُ عَلَى أعدائِهِم وَمُخالِفيهِم وَمُنكِري حُقوقِهِم وَفَضائِلِهِم وَمَثالِبِهِم
إلى يومِ الدّين

يقول الإمام الصادق عليه السلام: إذا أردتَ طلبَ العلم، فالتمسْ في نفسِكَ أوّلاً حقيقةَ العبوديّة، واسعَ نحوَها، ثمّ اطلبِ العلمَ بعدَ ذلك، واعجلْ هدفَكَ من طلبِكَ للعلمِ هو استعمالَه، وليس مجرّدَ تجميعِ بعضِ الأفكارِ والمعلوماتِ، وتكديسِ عددٍ من المحفوظاتِ في داخلِكَ؛ لتكونَ بذلكَ نفسُكَ وصدرُكَ مثلَ الكتابِ الذي يتضمّنُ بينَ دفّتيهِ هذهِ المسائلَ والعلوم.

خفاءُ حقيقةِ العبوديّةِ ومعنى أنّ الساهيَ لا يُذنِب!

لقد بيّنّا في الجلساتِ السابقةِ لماذا قالَ الإمامُ الصادقُ عليه السلام: «عليكَ في البدايةِ أن تلتمسَ حقيقةَ العبوديّةِ وتطلبَها في نفسِكَ» فماذا تكونُ حقيقةُ العبوديّةِ هذه؟ وهل هي أمرٌ خفيٌّ حتّى يسعى الإنسانُ للبحثِ عنها؟ نعم، إنّها أمرٌ خفيٌّ؛ وإلاّ، لو كانت واضحةً، وبيّنةً لجميعِ الناسِ، لما طرأتْ كلّ هذهِ المشاكلِ، ولكانَ الجميعُ عبيداً؛ فلو كانَ العبدُ يرى نفسَهُ مِلكاً طِلقاً لمولاه، ويعلمُ بذلكَ حقيقةً، لما تمرّدَ أبداً؛ إذ ما هي علّةُ التمرّدِ؟ هي الاستقلالُ، وإظهارُ الآراءِ الشخصيّةِ، وإبرازُ النفسِ في مقابلِ اللهِ تعالى؛ فهذهِ هي حقيقةُ التمرّدِ.. {إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ}؛ أي كلّ ذنبٍ يقترفُهُ الإنسانُ في أحدِ الأيّام، إلاّ الشركَ باللهِ لا يُغفَرُ. وقد قالَ للمرحومِ السيّدِ الحدّادِ رضوانُ اللهِ عليه: «يا سيّدي، لقد ارتكبتُ العديدَ من الذنوب» وقد كنتُ أبلغُ حينئذٍ السابعةَ عشرةَ من العمر؛ فقالَ لي: «إنّ الساهيَ لا يُذنِب؛ وأمّا هذهِ التي تتحدّثُ عنها، فهي أخطاءٌ وزلّاتٌ؛ والزلّاتُ من لوازمِ البشريّة» وهذا يعني أنّهُ كانَ يُطلِقُ اسمَ العصيانِ والذنبِ والمعصيةِ على مرتبةِ التمرّدِ، وليسَ على الأخطاءِ التي تحصلُ نتيجةً للحماقةِ، والأعمالِ الصبيانيّةِ، والنوازعِ البشريّة، وأمثالِ ذلك. {إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ}. وأمّا إذا تمرّدَ الإنسانُ على اللهِ تعالى، فإنّ ذلكَ لا يُغتفَرُ؛ ولا تظنّوا بأنّ إظهارَ الشركِ والاعتقادَ بوجودِ مؤثّرٍ في مقابلِ الباري عزّ وجلّ هو [فقط] عبادةُ الأصنامِ، والوثنيّة،

والإيمان بيزدان وأهريمن[1]؛ إلا أنّ هذه الآية عامّة ومطلقة بالنسبة للموارد التي يصرف فيها الإنسان توجّهه عن الله تعالى إلى غيره؛ فهذا هو معنى الشرك؛ ويبقى أنّ الأمر قد يختلف في بعض المسائل الجزئيّة، والتي تتحدّث عنها حين التطرّق لعبارة: **واطلُب العِلمَ باشتعماله**؛ لكنّني لا أظنّ بأنّنا سنتمكّن من الوصول إليها اليوم، حيث سنرى وجود اختلاف بين درجات استعمال العلم بحسب اختلاف الأفراد، وأنّ الناس يختلفون في المستوى من حيث استخدامهم لهذا العلم، وتطبيقهم له، وتأثّرهم به، بل وامتيازهم واحتياجاتهم به.

وأمّا بالنسبة للعبارة الأولى، فإنّ الإمام الصادق عليه السلام يقول فيها: «سع أوّلاً نحو عبوديّتك المنشودة والمفقودة، ولا يكن كدّك من دون طائل، ولا تأت عندي عبثًا، ولا تهدر لي وقتي»؛ فهذا ما يقوله الإمام؛ غاية الأمر أنّ ذلك بلسان حاله.. أفلم تطرق أسماعكم لحدّ الآن عبارة 'لسان الحال'؟ فهذا هو لسان حاله: اذهب أوّلاً، وانظر هل أنت عبد أم مولى؟ هل أنت حرّ أم عبد؟ وبعد ذلك، تعال عند الإمام موسى بن جعفر عليه السلام؛ والذي سأل بِشر الحافي: أ أنت عبد أم حرّ؟ إذا كنت حرًّا، فلا كلام لنا معك؛ وأمّا إذا كنت عبدًا، فإنّ هذا ليس هو فعل العبيد؛ وذلك بأن يرى الإنسان بأنّ لغير الله تعالى دخالة في المسائل التي تقع له؛ أجل، يبقى أنّ لهذا التدخّل مراتب مختلفة شدّةً وضعفًا؛ ولهذا، قد ينظر الإنسان أحيانًا لأحد الأفراد كواسطة، وأنّ إرادة الله تعالى ومشيئته تعلّقتا بتنزّل فيضه عن طريق هذه الواسطة، حيث لن يوجد هناك أيّ إشكال.

حقيقة العبوديّة بين النظرتين المرآتيّة والاستقلاليّة

حينما كان العلاّمة رحمة الله تعالى عليه في مستشفى القائم بمشهد من أجل إجراء عمليّة المرارة على ما يبدو لي، كان هناك أحد الأطبّاء الذين اشتدّت بعد ذلك أواصر مودّتهم به؛ وقد كان رجلاً محترمًا وشريفًا، وحافظ على علاقته بالمرحوم العلاّمة، وكان يأتي عنده كلّ يوم؛ وفي الحقيقة، فقد كان العلاّمة رحمة الله تعالى عليه في البداية تحت إشراف هذا الطبيب؛ لكن، بعدما آلت حالته إلى إجراء عمليّة جراحيّة، فقد أصبح علاجه على عاتق سماحة الدكتور توسّلي؛ إذ قبل إجراءات الكشف والفحص والتحاليل، كان هو الذي يقوم بالفحوصات الداخليّة، واسمه سماحة الدكتور منوشهر لاري، ويعمل في مستشفى القائم بمشهد؛ وهو إنسان منظّم جدًّا، وذو غيرة وحماسة، وكان محبًّا كثيرًا [للمرحوم العلاّمة]. ففي أحد الأيّام، التقيت به، فبدأ يُحدّثني فجأة بمسألة حصلت معه، أو مع أحد الأطبّاء الآخرين؛ والظاهر أنّها وقعت لغيره؛ وأنّه كان يشعر بأنّ الله تعالى قد أبقاه على قيد الحياة لأجل خدمة الناس، حيث وقعت على ما يبدو حادثة لأحد أصدقائه؛ فكان يقول إمّا هو أو صديقه، والترديد منّي أنا: «لقد شملني الله تعالى في هذه الحادثة بلطفه وعنايته، وأبقاني على

---

[1] يزدان هو إله النور وخالق الخير، وأهريمن هو إله الظلمة وخالق الشرّ عند الثنويّة (راجع: كشّاف اصطلاحات الفنون، ج ١، ص ٩١٣). المعرّب

قيد الحياة، حتّى أخدم الناس».. تذكّرت الآن، وأصحّح كلامي! حيث إنّ هذه المسألة لم تكن متعلّقة به هو؛ فقد تحدّث عن قضيّة مشابهة، وأخطأت أنا في بيان مصداقها؛ وتتعلّق هذه القضيّة بطبيب كان يذهب إليه العلاّمة رحمة الله تعالى عليه في طهران اسمه الدكتور ناصر اتّفاق؛ وقد كنت بدوري أرجع إليه؛ ففي السبع أو الثماني سنوات الأخيرة، كان المرحوم العلاّمة يتردّد عليه؛ وهو نفس ذلك الطبيب المشهور الذي انتقل إلى جوار ربّه على ما يبدو؛ فكان يحكي بنفسه عن مسألة حصلت له، ويقول: «لقد أحسست بأنّ الله تعالى أبقاني على قيد الحياة لأجل مساعدة الناس وخدمتهم».

كنت في المستشفى في محضر العلاّمة رحمة الله تعالى عليه أثناء مرضه الأخير الذي أصاب زيارته، فقال لي يوماً: يا فلان! يا سيّد محسن! هل تتذكّر حينما ذهبنا في أحد الأيّام إلى الدكتور اتّفاق، وحكى لنا تلك القصّة، وأنّه كان يعتقد برحيله عن هذا العالم، لكن نحصل بداء في الأمر؟ فبرأيك، هل هذا الكلام صحيح أم لا؟» حسناً، فأحياناً، كان العلاّمة رحمة الله تعالى عليه يمتحننا نحن والرفاء والأصدقاء جميعاً؛ كأن يذكر عبارة مثلاً ويقول لنا: فسّروها، واكتشفوا مواضع الخطأ والصحّة فيها، وحدّدوا نقاط قوّتها وضعفها، و...» فلم أُجبه؛ أي أنّني صبرت، لكي يجيب هو؛ فقال: يُمكن تفسير تلك العبارة بطريقتين- وهذا عليكم أن تُدقّقوا كثيراً في هذا الكلام-: الأولى، أن يكون ذلك الطبيب معتقداً حين التلفّظ بها أنّه "محلّ من الإعراب"؛ إذ له في جميع الأحوال مكانة خاصّة بالنسبة إلى نفسه؛ فهو صاحب تخصّص، وله وقعٌ ووزنٌ خاصّ [في المجتمع]؛ فإذا كان يشعر في نفسه بهذا الأمر، وبأنّ العديد من شؤون البلد سوف تتعطّل إن يقبض الله تعالى روحه؛ أي: إذا كان يرى لنفسه وشخصيّته هذه المكانة، فإنّ ذلك خاطئ تماماً؛ ولو أنّه قد ينسب حياته وبقاءه إلى الله تعالى، ويُضفي على ذلك صبغة إلهيّة، لكي يتمكّن من طرح هذه المسألة بنحو مناسب من الناحيين الوجدانيّة والشرعيّة، ومن ناحية علاقته مع الناس؛ فبمقتضى الأدلّة، لا يحتاج بيان خطأ هذه المسألة لأيّ شرح أو تفصيل أبداً؛ وإلاّ؛ بمعنى: نحن الآن موجودون، وإذا متنا، سنختلف الأمور، وتتغيّر المسائل، وتتعطّل شؤون العالم؟! لا، هذا غير صحيح بتاتاً! فالآلاف من الناس رحلوا، وحلّت محلّهم ألوف أخرى من دون أن يحصل أيّ شيء، أو تحدث أيّة مشكلة؛ فهنا، نُلاحظ أنّ الرؤية محفوفة بالكثرة، وأنّها رؤية تنصبّ على الذات والكثرة. وأمّا إذا كان مراده من ذلك الكلام أنّه -في جميع الأحوال- عبارة عن أحد الوسائط الإلهيّة؛ ففي نهاية المطاف، حينما يُريد الله تعالى أن يُظهر لطفه وإنعامه في هذا العالم، فإنّه ينزّل هذا اللطف عبر وسائط؛ ومن هنا، فإنّ إرادة الله تعالى ومشيئته تعلّقتا ببقائه على قيد الحياة من باب المرآتيّة والوساطة؛ ففي هذه الحالة، لن يوجد أيّ إشكال، بل هو أمر جيّد، ومستحسن جدّاً،

وفي محلّة، ولا يتعارض مع التوحيد والعرفان.. انظروا! إذا تغيّرت المسألة ولو بمقدار قليل، فإنّها تُصبح شركًا، وفي جانبها الآخر، تكون توحيدًا.

وهنا، يأتي قوله عليه السلام: **فَاطْلُبْ أَوّلاً فِى نَفْسِكَ حَقيقةَ العُبوديّة**؛ فعلينا في البداية أن نأتي بهذه العبوديّة الخفيّة، ونُجلّيها لأنفسنا؛ وأن نُحضر هذه العبوديّة التي غفلنا عنها، وهذه الحالة التي سَلونا عنها؛ والتي تجعلنا عبيدًا لله تعالى، وأن نُدركها، ونتمرّن عليها، حيث يتوجّب على الإنسان أن يُمرّن نفسه عليها باستمرار.

ضرورة تمرين النفس على التحقّق بحقيقة العبوديّة

ولهذا، فإنّ عبارة: **فَاطْلُبْ أَوّلاً** ليس المراد منها أن تستيقظ في الصباح، وتبدأ في التفكير في هذا الأمر: يا عباد الله! {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا}[1]؛ لا! لأنّ المسألة يا سيّدي لا تنحلّ دفعةً واحدة! بل تحتاج إلى عمل، ومشقّة، حيث ينبغي تذكير النفس بها كلّ خمسة دقائق؛ لأنّ النفس ترغب كثيرًا في التنصّل من هذا الأمر، وتسعى للذهاب يُمنةً ويسارًا حتّى تتغافل عنه بكلّ هدوء؛ كما أنّ الشيطان ولله الحمد يُساعدها في ذلك كثيرًا، ويضع بين يديها مختلف الطرق والوسائل، ويُعلّمها أسلوب العمل؛ وحينئذ، ماذا يتوجّب على الإنسان فعله؟ ينبغي عليه المجاهدة، بحيث كلّما حاولت النفس الدخول من باب معيّن، أغلقه الإنسان في وجهها، إلى أن يسدّ أمامها جميع الأبواب والنوافذ؛ ففي تلك الحالة فقط تستسلم النفس؛ أي حينما يُغلق في وجهها أبواب: «أنا هو فلان، وأنا بهذا النحو..».

وفي هذا المقام، سوف أطرح عليكم مسألة من دون أيّة مجاملة أو مواربة؛ ولنبدأ بأنفسنا أوّلاً؛ فنحن ولله الحمد قد أتينا إلى هنا بأجمعنا؛ أي جميع الفقراء، والأصدقاء، والأحبّاء، والأفراد الذين يشعرون بالألم، ويحسّون بالمرض، ويعلمون بمعاناتهم من نقص وفراغ، حيث وفّقنا الله تعالى للتعرّف على أحبابه، والأنس بهم؛ وهذا أقوله بجدّ، ومن دون أيّة مجاملة، **والله علَى ما أقولُ وكيلٌ** بأنّني لا أجامل هنا؛ فصحيح أنّ الفقراء يُبرزون لطفهم ومحبّتهم [بالنسبة لي]، لكن، إذا سُئلوا: «إنّ السبب الحقيقيّ لإتيانكم إلى هنا هو السيّد محمّد محسن الطهرانيّ، أم العلّامة السيّد محمّد الحسين رحمة الله تعالى عليه؟» فإنّ الجميع بلا استثناء سيُجيب: «أتينا لأجله»، وإلّا، فمن أكون أنا؟! فأنا ابنه وأنتسب إليه من الناحية الظاهريّة، غير أنّني لا أعدو كوني طالبًا مثل الآلاف من الطلبة؛ وفي هذه الحالة، ما هي القوّة التي جذبتكم إلى هنا؟ وما هي الحالة التي ساهمت في اجتماعكم في هذا المكان؟ فليست هي علاقتكم بي أنا؛ فما هي إذن؟ إنّ كتب العلّامة رحمة الله تعالى عليه، ونفسه هي التي تقف وراء هذه المسألة! وهل تعلمون ما هو الدليل على ذلك؟ الدليل عليه أنّه لو أنّني أردت أن

---

1. سورة الزمر، صدر الآية ٥٣.

أطرح منهجًا مخالفًا للمنهج المرحوم العلّامة ـ وقد تكون أيّ الأهلية والقابلية العلمية لذلك! ـ، فماذا كنتم ستفعلون؟ ستتركونني، وتدعونني جانبًا، وتقولون: أيّها السيّد! لقد طالعنا كتب العلّامة رحمة الله تعالى عليه؛ فتفضّل على بركة الله: إذا كان كلامك موافقًا لها، فنحن معك؛ وأمّا إذا كان كلامك معارضًا لها، فلا شأن لنا بك؛ لأنّك لن تكون حينئذ مختلفًا عن بقيّة الخطباء والمتكلّمين؛ وهم كُثُر في هذا البلد..

فنرى كلّ واحد يأتي ويدّعي مسألة لنفسه؛ وهذا أمر واضح؛ وحينئذ، يأتي الإنسان، وماذا يفعل؟ ويقول: لا يا سيّدي! ولولاي أنا، لبقيت كلمات المرحوم العلّامة مجهولة؛ ولولاي أنا، لما يتسنّى لأيّ أحد شرحها وتفسيرها؛ ولولاي أنا، لبقيت تلك البحار والجبال من العلم مستورة وراء السحب من دون أن يتمكّن أيّ أحد من الاطّلاع عليها ـ حيث يسعى الكثير فعلًا لإبقائها مخفية ـ ولولاي أنا، لـ...» لا، يا سيّدي! هذا غير صحيح، ولا ينبغي علينا أن نخدع أنفسنا؛ فلماذا لا نتحدّث بصدق؟ لأنّ الإنسان لن يلحقه أيّ ضرر جراء الصدق. فمن دون مجاملة، إنّ كتب المرحوم العلّامة هي التي أتت بكم إلى هنا؛ ولهذا، ما دمت أمشي في نفس هذا الطريق، فإنّكم ستأتون إلى هنا لمجرّد أنّني صاحبتُ ذلك العظيم لعدّة أيّام؛ وتقولون: «سنجد، تعالوا بنا لنرى ما الذي ينقله عن ذلك العظيم، وما هي القصص التي يحكيها عنه، والآراء التي ينقلها عنه»؛ فهذه هي حقيقة المسألة، وإلّا، فليس من المعلوم أن تنفعكم أفكاري الشخصية الفارغة، والكثير من الأشياء التي تملأ ذهني في شيء؛ وحتّى أنا، إذا أردت ألّا أكون خائنًا، عليّ أن آتي بكلامه هو، لا بكلامي أنا؛ أو أقول هذا من دون مجاملة!

ومن هنا، علينا أن نُصحّح تفكيرنا؛ فمن هذه الناحية، تبقى مسألة العلاقة بالله تعالى، والتعلّق بمبدأ الوجود محفوظة في محلّها؛ فلا ينبغي علينا أن نغفل أبدًا عن تلك الأنفاس الطاهرة للمرحوم العلّامة التي تجمعنا هنا؛ وحينما آتي وأجلس هنا، ويُحضرون الميكروفونات، ويضعونها أمامي، عليّ أن أنتبه على الفور؛ وهذا هو معنى التمرين. فحينما أذهب للدرس، ويأتي بقيّة الرفقاء، عليّ قبل أن أبدأ الدرس أن أستحضر أوّلًا: **فاطْلُب أوّلًا في نفسِك حقيقةَ العُبوديّة**، ثمّ أشرع فيه بعد ذلك؛ وعندما أكون جالسًا مع بعض الأفراد، ويطرحون عليّ سؤالاً، فقبل أن أسترسل في الكلام كالعندليب، وأتفوّه بكلّ ما يحلو لي، ماذا عليّ أن أفعل؟ عليّ أن أستحضر هذه المسألة في بالي أوّلاً، لا أن أتقدّم إلى الأمام، وأتقدّم، وأتقدّم، إلى أن أكتشف فجأةً بأنّني بلغت إلى موضع توجد بينه، وبين ما كنت أريد قوله فاصلة كبيرة؛ فما هو سبب ذلك؟ سببه الغفلة؛ أي أنّك سلكت هذا الطريق عن غفلة؛ وأمّا إذا احترزت عن ذلك منذ البداية... كما أنّ الإمام الصادق يقول أيضًا: أوّلًا؛ فيا أيّها السيّد الذي

تريد أن تبدأ الدرس، ماذا يجب عليك أوّلاً؟ ينبغي عليك دائمًا أن تطلب في نفسك حقيقة العبوديّة؛ وحينئذ، سوف ترى بأنّ كلامك قد تغيّر، واختلف عن السابق؛ ويا أيّها السيّد الذي يرغب في الذهاب إلى المتجر والسوق، حينما تُريد أن تقول بسم الله، وتفتح باب دكّانك، ابحث في نفسك عن حقيقة العبوديّة، وسوف تكتشف بأنّ معرفتك بالمشترين وبالناس قد تغيّرت، واختلفت عن الأمس؛ ويا أيّها السيّد الذي يُريد أن يدخل إلى منزله عند أهله وزوجته وأولاده، لا يأتي على بالك أبدًا بأنّك تحكمهم من مقام العلوّ والاستعلاء وأمثال ذلك؛ لا يا عزيزي! فهذا أمر محفوف بالمخاطر؛ ولهذا، حينما تفتح الباب، قبل أن تلج إلى الداخل، وتُسلّم على زوجتك، وتستقبلها بوجه مبستم، عليك أن تستحضر أوّلاً بأنّك عبد؛ فلا تتفوّه بأيّ كلام كيفما كان، ولا تتعامل مع ابنك كيفما يحلو لك؛ لأنّه عبد لله تعالى، ولو كان عمره ثلاث سنوات؛ ولهذا، ينبغي عليك أن تعمل بمقتضى تكليفك؛ لأنّ مسألة التكليف مختلفة عمّا نحن فيه، حيث يتعيّن على الإنسان أن يلتزم بالقوانين في هذا المجال، بل وحتّى إعمال الشدّة أحيانًا؛ إذ ينبغي الالتزام بهذه المسائل بحسب ما يقتضيه التكليف؛ غاية الأمر أنّ إعمالك للشدّة ينبغي أن يكون خاضعًا للعبوديّة، وليس للأنانيّة؛ كأن تقول مثلاً: «أنا زوجك، وعليك أن تُصغي لكلامي!»؛ فهذا غير صحيح، أو أن تقول: «بما أنّني زوجك، فإنّ طاعتي واجبة عليك؛ وإلاّ، إذا فعلت كذا، سأفعل كذا.. اذهبي خارجًا، وأنت تعال إلى الداخل، وافعل كذا»؛ وحينئذ، ماذا ستفعل هذه المرأة؟ ستشعر في نفسها بالحقارة، وتقول: «هل هذا هو السلوك؟ أنا سوف ...». لكن، إذا عثرت على حقيقة العبوديّة، فإنّك ستدخل إلى البيت بنظرة العبوديّة، وتتعامل مع أهلك بهذه النظرة، وتعثر على أُذن أخرى لتصغي بها إلى كلامهم، وسوف تسمع المسائل بطريقة مغايرة ومختلفة عن الأمس، وتصبح ليّنًا، وسلِسًا.

ةيدوبعلل لباقملا فرطلا يف عقت ةينانلأا

نّأ يأ ؛{كِلِوْحَ نْمِ اوُّضَفْنَلا ِبلْقْلا َظيلَغ اًّظَف َتنْكُ وْلَو مْهُلَ َتنْلِ ِالله َنمِ ٍةمْحَر امِبَف} رّافكلا كئلوأ عم فطلو نيلبلماعتت تحبصأ ىّتح ،كلمشي ذلا وه ىلاعتلا الله لضف ؛ىزّعلاو تلاحلا نع اولّختي لاو ،مهحاورأب اوّحضُي كلذ نيّدعتسم اوناك ينذلا نيكرشملاو يتأتن يأ نمف ،{كِلِوْحَ نْمِ اوُّضَفْنَلا ِبلْقْلا َظيلَغ اًّظَف َتنْكُ وْلَو} !اذه يملاكي فّداجأ

ءافخو(بّكرملا) لهجلا نم غلبدقه نوكو همسلا اذه لهجي أ ةيمستي فبسلا نإ ؟ةظاظفلا

ثّدحتلا نكمي لهإ ،ملعلا ىلإ ذفنيأ يّأ عسوب نكي مل ثيحب ،ًةجرد هذه ئسلملا نع كلذ ةّدصف ؛ًارارتسا قّدصلا واحلا لوسرلا نيبو ،نيبعضو دقف ؛ًاتاتبه معن ؛ىّدسلا ّاهضُي ،ملو نكي مل صيلبلا ّيشاغلا ًادبأ زواجتي نأ يأ ؛ةّنأ لهإ ًاتاتبل ىلإ لصعلا ذوفنلا ؛ةّنأ ودبيو ؛هسأر اولصفي نأ ادرأ دقو ؛لهجو بأ لثُق ،ردبه كرعم يف ؛ّيعمسلا ةّملاعلا ،كان ّامأيلا ،مأ دحأ يف !ةّينانلأا هذه لعفت اذلا ام اوظنافا ؛دحأ كرعم يف ثدحتي كلذ

هذه لعفت اذلا ام ةداسلا اهّيأ اوظنا» :لاقف ،لهجلا بأ ةصقّ نع ثّدحتي هيلع ىلاعتلا الله ةمحر

اوزّتحتن أ متدرأ اذإ» :لوقيو ،اهيف سبُحي تلا ةّينانلأا ىلع هتوحّجر يُذ ارهب ثيحب «!ةّينانلأا

ىلع رّفوّتيو ،ةّهبلأا نع ًلاثم فصّتي نأ كان ثيح «قنعلا تحت نم هوعطقاف ،يسأر

لا ةّنأ يأ ؛ةبقرلا عم هعطق نم فوقو ،بلطلب هنم مهعطق رسأ نم لبقلا نكي مل ؛صّاخ رهظم

يُفكّر بأنّه سيموت الآن؛ بمعنى أن نفسه تريد ذاتها بقيّة؛ وإلاّ، فإنّ الإنسان حينما يرتحل عن هذا العالم، فإنّه يرحل؛ وحينئذ، ما معنى أن تُوصي بهكذا أمور بعد موتك؟! فأنت سوف تموت الآن! لا، لأنّه يرى هذه الأماني مستمرّة، ويُريدها أن تبقى كذلك؛ وهذا، حينما نرى بعض الأفراد يرتحلون عن هذا العالم، فإنّنا نشاهد أحيانًا حتّى بعض الأمور غير اللائقة في مضمون وصاياهم؛ فما هو سبب ذلك؟ سببه أنّه يُريد المحافظة على تلك الأماني واستمرارها؛ فجاء ذلك [الصحابي] واحتزّ رأسه من فوق، ومن أصل العنق. لقد كانت هذه عادة سائدة بين العرب تقضي بأنّه إذا وجّه أحدٌ دعوةً للمبارزة في الميدان، بقوله: «هل من مبارز؟» فإنّه لا يُدير وجهه، ولو أتى الخصم من الخلف؛ فقد يأتي خصمه من وراء، ويضربه بالسيف، ويقتله؛ ومع ذلك، فإنّه لا يُدير وجهه للخلف، بل يقول: «إذا كنت رجلاً، فبارزني وجهًا إلى وجه» فانظروا إلى ماذا يُمكن أن تفعله هذه الأمانيّة؛ حيث جاء في تاريخ العرب أنّ المحارب يقول: «كنت رجلاً، عليك أن تواجهني من أمام؛ فلن أدير رأسي، ولو ضربتني وقتلتني!» فنراه هنا يُرجّح أمانيّته على القتل؛ فكيف يتسنّى للإنسان أن يصل إلى هذه المستوى؟!

وحينئذ، هل يُمكن لمثل هذا أن يرضخ للحقّ؟ وهل بوسعه نيل العبوديّة؟

وهذا، تبرز هذه المسألة المهمّة، وأنّه على الإنسان أن يضحّي بكلّ ما لديه في سبيل العبوديّة؛ فإذا كان طبيبًا، أو راد أن يُؤدّي وظيفته، فإنّ عليه أوّلاً أن يُحقّق في كلّ موضع يكون فيه؛ فإذا كان طبيبًا، أو راد أن يُؤدّي وظيفته، فإنّ عليه أوّلاً أن يُحقّق في نفسه حقيقة العبوديّة، وبعد ذلك، يلجأ للجراحة، والفحص، وكتابة الوصفة الطبّيّة، وأمثال ذلك؛ لأنّ الذي سيكتب الوصفة عندئذ سيكون عبدًا، والذي يُجري تلك العمليّة الجراحيّة سيكون عبدًا؛ هكذا، في بقيّة القضايا والمسائل؛ وحينئذ، إذا استمرّت هذه المسألة، فإنّها ستصير ملكة للإنسان؛ فتتغيّر أحواله. إنّ السبب من وراء تأكيد المرحوم العلاّمة مرارًا وتكرارًا على مسألة المراقبة هو عدم وجود من يلتزم بها؛ حتّى إذا فكّرنا فيها، فإنّنا نُفكّر فيها لمدّة دقيقة واحدة، أو لمدّة طويلة الأربعة عشر ساعة، ثمّ ينتهي الأمر؛ فتخطر على البال اللحظة واحدة، وبعد ذلك تنتهي المسألة؛ ومن هذا، فإنّ أوّل شرط للطالب العلم هي ضرورة انكشاف حقيقة العبوديّة؛ فما دامت هذه العبوديّة لم تتحقّق بعد في الإنسان، فإنّ هذه العلوم (وهي علوم إلهيّة) سيكون لها تأثير عكسيّ في نفسه.

سرخ زهر و سرو زار دیدن ** تا غلام خیال باغ نشست

[يقول: إنّ المطر الذي يتدفّق الكلّ وحول الطافة طبعه قد أنبت في الحدائق أزهارًا الزنبق، وأخرج من الأرض السبخة الحشائش والأشواك]

ةيدوبعلا ةقيقحب قّحتلاو ةيكزتلا مدعل ةيبلسلا راثلآا

{اًراسَخ لَّإِ َنيمِلَّاظلا ُديزَي لاَو} :ةّنأ ةفيرشلا تايلآا يف انيدلو، حيث إنّ جميع العظماء السابقين واللاحقين وعلماء الأخلاق أوصوا بضرورة التزكية في البداية، وقبل الحركة والشروع في طلب العلم؛ مع أنّ المراد من التزكية هي العبوديّة ذاتها؛ كما قالوا أيضًا: إنّ هذه المسألة [أي العلم] لا يُمكن وجودها أبدًا من دون ذلك المعنى وتحقّقه في النفس؛ وقد سألت العلاّمة رحمة الله تعالى عليه مرارًا وتكرارًا: «يا سيّدي! لماذا فلان بهذا النحو؟ لماذا تُعامله مثلاً بطريقة مختلفة؟»، فكان يقول: «أيّها السيّد! إنّ هؤلاء ليسوا من أهل التسليم؛ فهم يأتون إلى هنا لمجرّد الاطّلاع على بعض الأحوال والأوضاع، ومشاهدة عدد من المسائل؛ لكنّهم يظلّون متقوقعين داخل أفكارهم وأنانيّتهم الخاصّة». فأحيانًا، قد يأتي أحدهم، ويكون باحثًا عن الحقائق، غير أنّه يفتقر إلى الهمّة اللازمة للعمل بهذه الحقائق؛ فهذه مرتبة؛ لكن، أحيانًا أخرى، قد يكون أحدهم غير متوفّر منذ البداية على حالة التسليم هذه؛ وحينئذ، هل ستكون هناك نتيجة متوخّاة من تردّده على ذلك العظيم؟

!لمعلا اذهبمق ،ّديسلا اهّيأ -

؟كلذ ىلعليلدلا وهامـ

!لمعلا كلذبمق ،ّديسلا اهّيأ -

؟كلذ ىلإ يعادلا وهامـ

!لمعلا كاذبمق ،ّديسلا اهّيأ -

؟مريغبمايقلا يننكمُيلهـ

!لمعلا اذهبمق ،ّديسلا اهّيأ -

؟أضيأ اذهبمايقلا يلزوجيلهـ

.... ،ّديسلا اهّيأ -

إنّك تعترض على كلّ ما يُقال لك؛ ولهذا، فلن تحصل على أيّة نتيجة؛ فطبقًا لما جرّبناه، وذكره لنا العظماء، وكتبوه بأنفسهم، فإنّ هذا الأسلوب في التعاطي لن يُثمر أبدًا؛ لماذا؟ لأنّ العلم [هنا] علم إلهيّ، والسلوك سلوك إلهيّ؛ والسلوك الإلهيّ لا ينسجم مع هذا الأمر، ولا يتوافق مع «إن قلتَ، قلتُ»؛ والأمر الآخر أنّه ليست كلّ نفس لها الاستعداد لهضم جميع المسائل دفعةً واحدة، بل إنّ هذه المسائل تتّضح لديها بالتدريج؛ ونرى بأنّ الإنسان يصل إلى العلم بالملاكات والمصالح والمفاسد تدريجيًّا، لا دفعة واحدة. وقد ذكرت للأصدقاء والأحبّاء بأنّ حالة التجرّد النفسانيّ التي يلزم منها نيل الإدراكات الكلّية وكشف الحُجب لا تحصل في لحظة واحدة، بل بالتدريج؛ ولهذا، اعتبر كافّة العظماء أنّ أوّل شرط للسلوك هي العبوديّة؛ أجل، كانوا يأتون، ويتحدّثون، ويقومون ويقعدون، ويعقدون الجلسات، لكنّ النتيجة المتوخّاة لا تحصل بدون تحقّق تلك المسألة [أي العبوديّة].

في أحد الأيّام، قال المرحوم السيّد الحدّاد رضوان الله تعالى عليه: «كان أحد علماء النجف في سفر برفقة مجموعة من علماء إيران وبعض أصدقائه، حيث كان يُسافرون في الماضي بواسطة المحامل والهوادج، وينتقلون من مكان إلى مكان آخر؛ ووسط الطريق،

توقّفوا للاستراحة، وحطّوا رحالهم بالليل في أحد المنازل، لكي يُعاودوا المسير في الصباح. وكان مُكاري تلك القافلة والمسؤول عن أمور الحمل والنقل ورعاية الدوابّ رجلاً عاديًّا، فلم يُعجب به ذلك العالم كثيرًا منذ البداية لِما رأى فيه من جرأة على المعاصي والذنوب؛ لكن، حينما كان منهمكًا في الحديث، رأى بأنّ ذلك المُكاري قد أتى بدوره، وجلس بينهم، وطرح سؤالاً معيّنًا؛ فلم يُجبه العالم بتاتًا، إلى أن مرّت فترة من الزمان، فأعطاه جوابًا، غير أنّ المكاري أشكل عليه، فأجابه العالم، ثمّ أشكل عليه المكاري مرّة أخرى، فاندلع بينهما النقاش، إلى أن وصل الأمر إلى عجز العالم عن الردّ على المكاري؛ ولمّا رأى بأنّ الأوضاع صارت مزرية، بدأ بالحديث عن بعض المسائل [الهامشيّة]، وقال: «ائتوني بذلك الشيء، خذوا ذلك الشيء!»، فأوقع الفوضى بالاجتماع؛ لأنّه رأى بأنّ الأمر قد ساء كثيرًا. فانقضت مدّة من الزمان، وإذا بذلك المكاري يطرح مجدّدًا سؤالاً آخر في النحو، فبدآ يتبادلان الأسئلة والأجوبة شيئًا فشيئًا، إلى أن صار العالم عاجزًا عن الردّ؛ ليشرع [في التهرّب]، والقول: «خذوا هذا، ائتوا بذاك! ماذا فعلتم بهذا الشيء؟ وذلك الشي...»؛ فأثار الفوضى؛ ومرّة أخرى، انقضت فترة من الوقت، فأثار المكاري تساؤلاً فقهيًّا؛ وحينما رأى ذلك العالم بأنّه لا يتنازل؛ وكأنّه يُريد أن يُريق ماء وجهه أمام أصدقائه ومحبّيه، فإنّه قام من المجلس، وتخلّى عن المسألة بالكلّية، وذهب، وقال: «لقد تعبت!»، وأمثال ذلك؛ وبعد ذلك، التفت إلينا السيّد الحدّاد، وقال: «انظروا! حينما لا يكون هذا العلم مقترنًا بالعبوديّة، فإنّه ينتهي بصاحبه إلى هذه العاقبة».

فالعلم موجود، والمسائل مكوّمة، والمحفوظات مكدّسة؛ لكن ما هي حقيقة الأمر؟ فليس فقط أنّ تلك الاستفادة المتوخّاة من هذا العلم لم تحصل، بل إنّه يُعطي نتيجة عكسيّة، ويصير حجابًا؛ فترى الإنسان يحفظ القرآن بتمامه، لكنّه لا يجني منه أيّة ثمرة، إلى درجة أنّه لا يعود يستفيد، ولو من آية واحد منه؛ وتجده عالمًا بكلّ الفقه، ومطّلعًا على الروايات التي تتحدّث عن العقاب، والوجوب والحرمة، غير أنّ علمه هذا لا يتجاوز مستوى الحفظ، بحيث إنّ نفسه صارت قاسيةً بقسوة هذا الكتاب. فإذا نظرتم إلى هذه الصفحات، سوف تجدونها قاسية؛ ولو أنّ هذا الكتاب وقع على رأس أحدهم، لأدّى إلى تألّمه؛ لكن، كم هي المسائل المكنونة فيه؟ فيكفي أن تلقوا نظرة عليه من بدايته إلى نهايته، لتروا ما هي المسائل المتضمّنة فيه؛ فما هو سبب ذلك؟ سببه أنّه يحتوي على مجموعة من المسائل، لكنّها مدوّنة على الورق، والورق يتّصف بالصلابة؛ لأنّ أصله الخشب؛ وفي الحقيقة، فإنّ تلك المسائل مكتوبة على الخشب؛ هذا، مع أنّهم كانوا في الأزمنة السابقة يكتبون المعلومات على الجلود، وأحيانًا، ينحتونها على الأحجار؛ فأين يكمن الفارق؟ صحيح أنّ المسألة هي هي، غير أنّ الموضع الذي تستقرّ فيه ما هو؟ هل هي النفس، أم الحجر؟ فالنفس قد تصير حجرًا! فمع أنّ الإنسان يكون متيقّنًا بأنّ إثنين زائد إثنين تُساوي أربعة، ويرى الحقيقة ناصعة مثل الشمس في رائعة النهار، إلاّ أنّه لا يقبل؛ لماذا؟ لأنّه حجر؛ وإلاّ، فهل يوجد سبب يدفع الإنسان الذي يرى الحقيقة ألاّ يقبل بها؟ إذن، لأيّ شيء يرى الإنسان المصباح، ويرى النهار؛ لكنّه مع ذلك، يقول: «إنّه الليل! إنّ الجوّ مظلم!»، وما هي علّة ذلك؟ علّته أنّ المحلّ غير صالح، وأنّه تحوّل إلى حجر؛ فلا تعجبوا كثيرًا من أنّ ذلك الشخص يمتلك علمًا؛ لأنّ هذا العلم موجود حتّى في الكتب؛ فنفس هذا الكتاب الذي أحمله بيدي يتوفّر على مسائل كثيرة جدًّا، بحيث إنّ كلّ خطّ منه يتضمّن مسألة؛ لكنّه يا سيّدي يبقى كتابًا! ولو ألقيتموه في الماء، لصار عجينًا بعد مدّة من الزمان. هل يُمكنكم أن تعثروا على كتاب أفضل من القرآن الكريم وآياته؟ لكنّنا نجد بأنّ هذه

الآيات مدوّنة على الورق؛ وهي ليست تلك الآيات المكنونة في الصدور، بل هي آيات قرآنيّة مسطّرة بين الدفّتين [أي دفتي المصحف الشريف].

لهذا، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ارموا هذه الآيات بالسهام!» هل التفتّم؟ ما معنى ذلك؟ مراده من ذلك: «ارموا تلك الأوراق، ووجّهوا سهامكم نحو محلّ الآيات، وليس نحو الآيات بنفسها!».[1] {مَلْعِلْا اوُتوُأ َنيِذَّلا ِروُدُص يِف ٌتاِّنيَبَ ٌتاياآ َوُه ْلَب}؛ فحقائق الآيات مكنونة في صدور الرجال، وأمّا هذه، فليست إلاّ مجرّد مداد، حيث تجد رجلاً كبيرًا يكتب بواسطة هذا المداد؛ كما تجد طفلاً ذي خمس سنوات يكتب بالمداد ذاته؛ فهي مجرّد مداد؛ مثلما أنّ تلك مجرّد أوراق. فماذا يعني «أنا القرآن الناطق»؟ يعني أنّ هذه الآيات مكنونة في صدري؛ ومن دون ذلك، لا تكون لها أيّة قيمة إذا أراد أولئك أن يواجهونني؛ ولهذا، فإنّه يقول: «ارموها!»؛ وأمّا بالنسبة لأهل الظاهر، فماذا يرون؟ لا يرون المحلّ، بل يقتصر نظرهم فقط على الظاهر، وعلى تلك الآيات؛ خلافًا لأمير المؤمنين الذي ينظر إلى المحلّ، ويقول لهم: «لقد تخلّيتم عن هذا المحلّ، وتمسّكتم بالأوراق!». إنّ حقيقة المسألة تدور بأجمعها حول هذه النقطة يا عزيزي! فعلى الإنسان أن يُحقّق في محلّه، ليرى ما هي حقيقة هذا المحلّ؟ هل هو محلّ تُنتقش فيه هذه الحقائق، أم أنّه مجرّد حافظة، وشريط، وكتاب؟ وفي هذه الحالة، فلن تكون له أيّة قيمة.

يِنّنإف ،أضيأ تقولاو ،اًريثك دعاسُي لا يِذلا يِلاحو ،مويلا اذه فورظ ىلإ رظنلاب نإ ـ لكذنأ ىلع ؛ءاقدصلأا ةمدخبنوكأ نأ ىلاعتلله هيفيِنقّفو يِذلا رادقملا اذهب يفتكأس .ىرخأ ةسلجىلإ لئاسملا هذه ةمتتـ ىلاعتلله ءاش

ةدراولا لئاسملا هذهبلمعلا نمنّكمتنيكل ،هقيفوتانحنمينأ ريدقلا ّيلعلا نموجرن كلتبنيلومشمـ نوملّكتملا نحنـ أضيأ انرودبنوكنلاو ؛ملاسلا هيلعةمئلأا ةعافشنمانمرحيّلاأو ؛اياضقلا .ةرخلآاو ايندلا يفملاسلا مهيلع

دَّمحُم لآ و دَّمحُم ىلَع ِّلَص مَّهَللا

[1] ٤٩. ةيلآا ردصت،وبكنعلا ةروس